مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (1)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (1) 2013

مناهج التأليف الأدبي في القرن الثالث الهجري

الدكتور يوسف زردة*
هيفاء ديّوب**

(تاريخ الإيداع 31 / 10 / 2012. قبل للنشر في 10 / 2 / 2013)

□ ملخّص □

يسلّط البحث الضوء على منهجين رئيسين تتوزّعهما أبرز المؤلّفات الأدبيّة في القرن الثالث الهجري, أوّلهما: منهج الاستطراد القائم على الانتقال العفوي بالقارئ من موضوع إلى آخر, ومن فكرةٍ إلى أخرى من دون رابط منطقيّ, بما في كلّ هذا من إيحاءٍ بالاضطراب , وعدم المنهجيّة , وما يخفي وراءه من دلالاتٍ ونيّاتٍ وآراءٍ قد لا يكون ممكناً التصريح بها , وخير من يمثّل هذا المنهج الجاحظ ت 255هـ الذي يعدّ بحقّ المؤسّس الحقيقي لأسلوب الاستطراد في كتابيه: (الحيوان , والبيان والتبيين) .

وثانيهما: منهج التصنيف والتبويب القائم على ترتيب المفردات المعرفيّة المتجانسة , ووضعها ضمن بابٍ واحد تحت عنوان محدّد, ويعدّ ابن قتيبة ت276هـ في كتابه (عيون الأخبار) أوّل من شقّ هذا الطريق من خلال تقسيمه كتابه إلى أبواب ينطوي كلّ منها على مجموعة من الأخبار المتجانسة – إلى حدّ ما – لأنّه لا يريد أن يخرج تماماً عن سنّة سار عليها سابقوه وهي الاستطراد, وكان عمله خطوةً رائدة في مجال التصنيف والتبويب, أمّا كتاب (الكامل) للمبرّد ت 285هـ فعلى الرّغم من تقسيمه إلى أبواب إلا أنّه لا يحمل من روح التصنيف شيئاً , وتقسيمه كان شكليّاً فقط .

الكلمات المفتاحيّة : المنهج – الاستطراد – التصنيف والتبويب

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سوريّة .
**طالبة دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سوريّة.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (1)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (1) 2013

Approaches of literary composition in the third Hijri century

Dr. Yousef Zardah*
Haifa Dayyoub**

(Received 31 / 10 / 2012. Accepted 10 / 2 / 2013)

□ ABSTRACT □

This research highlights two main approaches that are used in the most distinguished literary books in the Hijri third century:

The first one is digression. This approach is based on the spontaneous transferring of the readers from a subject or idea to another without a logical connection. This approach may include a hint of confusion and a lack of methodicalness. It may also hide denotations, intentions and viewpoints that could not be made explicit. Al-Jahez (255 Hijri) is the most prominent representative of the approach in his two books (Al-Hayawan) and (Al-Bayan and Altabyeen), Al-Jahez is truly considered the real founder of digression.

The second one is the approach of categorization and classification that is based on arranging the cognitive, homogeneous vocabulary and putting them within one chapter with a specific title. In his book (Uyoun Al-akhbar), Ibn Qutaibah is considered the first to begin this method by dividing his book into categories. Each of these categories include a set of partly homogeneous news. This is because he does not want to completely break away from the tradition of digression used by his predecessors. Ibn Qutaibah's work was a leading stage in the field of categorizing and classification. As for the book (Al–Kamel) by Al–Mubarred; in spite of dividing this book to chapters, it does not hold the essence of categorization, and the division was just formal.

Key words : Approach – Digression - Classification and categorization .

* **Associate professor, Arabic Department , Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia , Syria .**
** **Postgraduate Student, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia , Syria .**

مقدمة:

قد يكون من السّهولة بمكان اتّباع منهجٍ في التأليف , لكنّ الصّعوبة كلّها في ابتكار منهج , والتثبّت من قيمته ومزاياه وصولاً إلى أن يتبعه الآخرون , فالفارق فيما بين الأمرين كالفارق فيما بين عمليّة شقّ الدّرب ورصفها , وبين فعل السّير عليها , بما في هذا من تشابهٍ واختلاف , وقد نجافي المنطق إذا اكتفينا بقراءة نتاج كبار المؤلّفين من دون الخوض في مناهجهم , وأسسها , وعوامل تكوينها ومن هنا تأتي أهميّة البحث .

أهميّة البحث وأهدافه :

تأتي أهميّة البحث بوصفها محاولة لقراءة فعل الكتابة في عصر نشأة التأليف الموسوعي في تراثنا الثرّ ؛ إذ يقوم على طرح أسئلة كثيرة , ومحاولة الإجابة عنها متوخّياً دراسة الأساليب والمنهجيّة من ناحية الظروف التي هيّأت لها , والهيئات التي تجلّت عليها .

منهجيّة البحث:

يقوم البحث على منهج وصفيّ تحليلي؛ إذ جرى فيه تناول أساليب التأليف كما وصفها أولئك المؤلّفون مع محاولة توصيفها من قبلنا, وتحليل عواملها ومظاهرها, ونقاط التشابه والاختلاف, وخيوط التلاقي والتداخل فيما بينها .

وقد تمّ إجراء البحث في جامعة تشرين ولصالحها .

مناهج التأليف الأدبي في القرن الثالث الهجري :

في سياق بحثنا في مناهج التأليف الأدبي في القرن الثالث الهجري تطالعنا صورتان مختلفتان اختلافاً واضحاً , وإن كان بينهما تقارب وتشابه من نوعٍ ما كما سنتبيّن .

فالمنهج بوصفه طريقةً في التأليف لم يكن في تلك المرحلة المبكّرة من نشاطنا التأليفي واضحاً محدّد الجوانب , جليّ الرّسم , وليس في هذا كبير غرابة لأنّ طبيعة الأشياء أن تكون بداياتها هكذا . فإذا كان ممكناً وسهلاً قراءة نتاج مفكّر أو عالمٍ أو أديب فإنّه لمن الصعوبة بمكان الوقوف على أسباب اتّباعه هذا المنهج أو ذاك , لأنّ هذا يتطلّب معرفة آثار كلّ الأمور في فكره وشخصيّته وأسلوبه من جهات الزمان والمكان والبيئة والنّسب , وبهذا ينفتح الدّرس على الوجهات كلّها , ومع هذا لا بدّ له من ضوابط المنطق والاعتدال في الرأي والحجم معاً , وهنا بيت القصيد .

وبعد الاطلاع على أبرزالمؤلّفات الأدبيّة خلال ذلك القرن من مثل : (الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ ت :255هـ, وعيون الأخبار لابن قتيبة ت:276هـ , والكامل للمبرّد ت:285هـ) نجدها خير أنموذجات التأليف , وأضخم المؤلّفات في تلك الحقبة الأساس في تاريخنا الفكري عامّةً ؛ وهذا لأنّها تحمل أهمّ صفات كتب الثقافة الأدبيّة والموسوعيّة معاً ؛ لأنّها تأخذ من كلّ علمٍ بطرف , وهي في أغلبها لا تتوجّه إلى فئةٍ أو طبقةٍ اجتماعيّة بعينها إنّما تخاطب كلّ قارئ وفق مستواه المعرفي لتزيده معرفةً واهتماماً , فكأنّها – مهما تنوّعت مستوياتها , واختلفت موادّها , وتباينت , وتكاملت – كتبٌ للمجتمع بامتياز , ينهل منها كلّ ذي رغبةٍ ما يستطيع , أو ما يريد أن يستطيع لتؤثّر في الإنسان أيّ إنسان ما يمكن لها أن تؤثّر فيكون أصحابها قد وفّقوا إلى ما ابتغوه من نشر ثقافةٍ وفكرٍ وآراء , وإثبات

مقدرةٍ وموهبة , وتحقيق شهرةٍ ومجد فخلود في عالم الفكر والتأليف " ثمّ إنّهم إذا أرادوا حدّ هذا الفنّ قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كلّ علمٍ بطرف "[1].

فبمجرّد تفهّم رأي ابن خلدون في الأدب يمكن فهم حقيقة نظرة المؤلّفين فيه على أنّه تنوّع , وانسجام , وتكاملٌ , وتباين , واختلاف إلى حدّ يكون فيه على صورته الحياتيّة الكليّة بأبعادها ومناحيها المختلفة , بغير قليل من التشعّب والحيرة في أصل هذا الأدب الّذي هو إنسانيّة الإنسان , وروعة البيان . " فالأدب بحسب هذا المفهوم , ثقافةٌ عامّةٌ واسعة ترمي قبل كلّ شيء إلى تكوين ملكة البيان لدى صاحبها وجعله قادراً على إجادة التعبير عن أفكاره نثراً أو شعراً .والأديب , بحسب هذا المفهوم أيضاً , إنّما هو الرجل المثقّف الآخذ من كلّ علمٍ بطرف , والقادر على التعبير عن أفكاره بالكلام الجيّد المنظوم أو المنثور "[2] .

وكما أسلفنا – بعد الاطلاع على أبرز مؤلّفات القرن الثالث الهجري وجدنا ها ضمن منهجين يغلب على أحدهما طابع الاستطراد , و يغلب على الآخر طابع التصنيف والتبويب , وإن لم يكن هذان المنهجان واضحي الجوانب , ثابتيّ الهويّة كما يفترض في مصطلح المنهجيّة .

ويمكننا البدء بدراسة الاستطراد بوصفه منهجاً , وأسلوباً بارزاً استتّه الجاحظ حتّى عُرف به , وغدا عنواناً عليه , كما نجد في أبرز مؤلّفاته من مثل كتابه الشهير " الحيوان " وفي مستوى أقلّ منه في " البيان والتبيين " .

منهج الاستطراد :

هو منهجٌ في التأليف يقوم على الانتقال بالقارئ من موضوع إلى آخر , ومن فكرةٍ أو معنى إلى فكرة ومعنى آخرين , من غير أن تكون ثمّة رابطة تربط بالضرورة بين الموضوعين أو المعنيين المنتقل بينهما , مع ضرورة التنبّه إلى إمكانيّة عودة الأديب أو عدم عودته إلى الموضوع المنتقل منه "[3] . بما في هذا كلّه من إيحاءٍ بالاضطراب , وعدم المنهجيّة , وما يخفي وراءه من دلالاتٍ ونيّات , وتمرير مفرداتٍ معرفيّة وآراء قد لا يكون ممكناً التصريح بها , يضاف إلى هذا غزارة العلوم والمعارف إلى جانب طريقة اكتسابها .

ولم يكن الاستطراد مجرّد ظاهرة أسلوبيّة وجدت مصادفةً بل كان وراءه عوامل وأسباب كثيرة , فمن أبسط القواعد أنّ سبباً واحداً لا يخلق ظاهرة , فكيف بالظاهرة الأسلوبيّة أن تعود إلى سببٍ واحد , علماً أنّ أسلوب المؤلّف هو هويّته الحقيقيّة . وبالتمعّن في أسباب الاستطراد وخفاياه ودلالاته تكثر الآراء وتتنوّع حتى تتكامل وتتمحور حول دوافع عدّة جعلت من الاستطراد قضيّةً للدرس والتحليل , وهي في صورتها الكاملة التي غطّت في غير قليل من الأحيان على عواملها وأسبابها , فالصورة الكاملة تبهر ملامحها النّاظر إليها , وقد تمنعه من تقصّي مفردات الألوان والخطوط التي تكوّنها فإنّ " أعظم خطر يمكن أن يتعرّض الباحث للوقوع فيه هو عندما يكون بسبيل تفسير ظاهرة من الظّواهر العامّة والتعليل لها . ذلك أنّ الإمساك بأطراف الخيوط الأولى التي تكون سدى هذه الظواهر أمرٌ من الصّعوبة بمكان , لأنّ هذه الأطراف في العادة تكون محوطة بكثيرٍ من الغموض , فلا يكاد يرى الباحث أمامه إلا الظّاهرة نفسها في كمالها ووضوحها "[4].

---

[1] **ابن خلدون , المقدّمة:ص553-554**

[2] **– الطرابلسي,أمجد , نظرة في حركة التدوين والتأليف عند العرب , ص : 129**

[3] **– زردة , يوسف , مصادر التراث العربي في الأدب واللغة والتراجم , ص: 110**

[4] **– إسماعيل , عز الدين ,الأسس الجماليّة في النقد الأدبي , ص:252.**

فإذا ذُكر الجاحظ ذُكر الاستطراد , والعكس صحيح . لكنّ دراسة هذه العلاقة بين الرجل وأسلوبه قلّما حظيت بالدرس والتحليل على المستوى المنهجي المطلوب . وفي هذا السياق لا نريد أن نقع في مثل ما وقع فيه من ننتقدهم في تعليل الظواهر الإبداعيّة من حصرٍ وتخصيص في جانب دون آخر ؛ فالتأليف بمعناه العام نوعٌ من الإبداع , ولا بدّ لكلّ عملٍ من عوامل وأسباب كثيرة حتى يغدو في صورته الكاملة , وهذه العوامل داخليّة وخارجيّة , ذاتيّة ومحيطيّة ؛ فمنها ما يتصل بذات المؤلّف وحجم علومه وغزارتها وتنوّعها , وطرائق اكتسابها , ونفسيّته في أثناء تلقّيها و صوغها . ومنها ما يتصل بالمحيط الاجتماعي والمكاني والزماني , والانتماء العام بمفاهيمه المختلفة , ولهذا لا يمكن , ولا يجوز بأيّ حال عزل ظاهرة نريد دراستها وتفسيرها عن مجموع هذه العوامل التي تنوّعت وتصارعت حتّى أنتجت هذه الكيميائيّة الإبداعيّة إن صحّ التعبير .

ومَن أشدّ عمقاً ودرايةً بالحياة من الجاحظ الذي خبر الناس والأيّام , وميول المجتمع , وتلوّن الحياة فيه تبعاً لوجهات الدين ومذاهبه , والسياسة وأهلها , وعقول العامّة والخاصّة , وطباع كلٍّ منهم ؟ وهو الّذي عُرف بالحنكة , وسعة الثقافة , والصّبر على القراءة , وقد أسعفه طول مقامه في الحياة بخبرةٍ لم تتح إلا لقلّةٍ من النّاس , فقد عاصر خلفاء كثراً , ورأى وعاش اختلاف وجهاتهم في السياسة , والحُكْم , وسلسلة الأولويّات لدى كلٍّ منهم فعرف كيف يفيد من كلّ تجربة حتى غدا بارعاً حاذقاً في التعامل والتقرّب إلى أهل السّلطان , مع إبقاء مسافةٍ تفصله عن كلٍّ منهم مخافة أن يحسب على أحدهم فيأخذه بهذا آخر ؛ بمعنى أنّه عرف فنّ الكرّ والفرّ في ميدان الحياة , وصاغ هذه الخبرة في رحاب الفكر والتأليف , وهذا كلّه جانبٌ أساس , وعاملٌ مهمّ في اتخاذه الاستطراد منهجاً غالباً على ما ألّفه . علماً بعدم اتفاق الدارسين حول أسباب الاستطراد عنده , وإن تقاربت الرّؤى , وتقاطعت أحياناً إلا أنّها كثيراً ما تباينت وتعدّدت , ولا نظنّ المغالاة قائمة في الحكم بأنّ الآراء كلّها صحيحة من وجهةٍ نسبيّة دون الفصل بأرجحيّة رأي على آخر إلا من جهة الكمّ والموقف وليس من ناحية القصد والنيّة .

دوافع الاستطراد عند الجاحظ :

لقائلٍ أن يقول : لا اتفاق بين مفهوم المنهج ومصطلح الاستطراد , لكنّ كلّ ظاهرة أسلوبيّة تبرز وتنتشر تعدّ منهجاً بما فيها من معالم وأسس تميّزها , وتظهر خصائصها . وعلى هذا يكون الاستطراد منهجاً وإن لم يكن مقيّداً بالرّسوم والصّوى التي يتّكئ عليها المؤلّف والدارس معاً .وكيف لا يكون الاستطراد منهجاً وهو أسلوب تأليف عدد من أمّات كتب الأدب في عصرٍ عُدّ عماد التأليف في تراثنا الأدبي ؟ وليس الجاحظ من يقف في زاويةٍ واضحة محدّدة وكأنّه يقول : ها أنا ذا فيعرفه كلّ سامعٍ و قارئ , ويمكنه تالياً الجري على منواله , وبلوغ شأوه بما يمكّن حسّاده وغير مريديه من النّيل منه وهو الّذي عرف صباغ الحياة في عصره , وكم يكلّفه كلّ من التشابه والاختلاف والرّضى والسّخط, أضف هذا إلى امتلائه علماً ومعرفةً ممّا جعله دائرة معارف عصره . وإنّه لظلمٌ لكلّ كبير أن نطلب منه أن يكون نسخة عن كلّ آخر, يقرؤها ويفهمها كلّ قارئ أو مطّلع ؛ إذ لا بدّ لكلّ كبيرٍ من خصوصيّة , ولا بدّ لغرائب الخصائص أن تشكّل لغزاً , ولهذا ما زلنا ندرس نتاج كبار المبدعين والمؤلّفين , ونختلف حولهم , وفوق هذا نقرأ عصورهم من خلال ما كتبوه .

تتوزّع هذه الدوافع بين القريبة والبعيدة , وبين العامّ والخاصّ , لكنّنا عندما ندرس أسباب هذا المنهج عند الجاحظ نتأنّى ونحاول تمثّل المرحلة التي عاش فيها , وانعكاسها على شخصيّته , وكذلك حجم علومه وتنوّعها , يضاف إلى هذا ما عُرف عنه من سمات هي إلى الحنكة والعمق أميل وأقرب . ومن هذه الدوافع :

- ضخامة مخزونه المعرفي , وتنوّع علومه ومصادرها على مبدأ الأخذ من كلّ علمٍ بطرف , وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن سواه من المؤلّفين والعلماء العرب , فقد كانت الثقافة الموسوعيّة شرطاً أساساً , وسمة طبيعيّة لدى كلّ عالمٍ و مؤلّف , ولدى كلّ متلقٍّ أيضاً . فمفهوم التخصّص في علمٍ من العلوم لم يكن مطروحاً في تلك المرحلة ؛ حتّى إنّنا نسمع ونقرأ عن فلكي رياضي لغوي معاً , وكأنّ هذه العلوم التي يشمل كلّ منها مجالات ومدارس وتيّارات في أيّامنا لم تكن أضخم وأعظم من أن يلجها ويلمّ بها عقل عالمٍ مبدع , ولا نعني بهذا قلّة حجمها , وضآلة أهميّتها يوم ذاك , إنّما نحن ندرس هاماتٍ فكريّة عُدّت وتُعدّ بحقٍّ استثنائيّة في عمقها وقيمتها .

- طريقة اكتساب علومه ومعارفه , وهي غير قائمة على التنظيم والتبويب , ما انعكس على أسلوبه في تقديمها, فالواقع متشعّب , والحياة واسعة , وكنوز المعرفة مبثوثة في كلّ مكان , وما على طالب العلم إلا أن يبحث وينقّب , ويقرأ ويتقصّى . الجهد شخصيّ , والسعي مضنٍ , والهمّة عالية , ولا مدارس ولا جامعات تهتمّ بتعليم الطلاب , ولا مراحل ابتدائيّة , وإعداديّة , وثانويّة , وجامعيّة , لتخرّج أستاذاً أكاديميّاً بذهنيّةٍ منظّمة , وفكرٍ مرتّب , وعرضٍ منهجي, يخلو أسلوبه من الاستطراد والفوضى ؛ فتكوين الجاحظ يكاد يكون موسوعيّاً , واكتسابه لمعارفه لم ينته طيلة حياته , ولم يوفّر باباً للعلم والمعرفة إلا ولجه , وتعرّف مكنوناته . وإنّها لمسألةٌ بيّنة , ووضعٌ طبيعي أن يكون أسلوب الإنسان في الكلام والعلم والتعليم متحصّلاً له من طريقة حياته واكتسابه ما قد حصّل , فإذا كانت حياته وعلومه قائمة على التنوّع والطول والإلحاح في الطّلب فإنّ النتيجة تنوّعٌ وغنى وضخامة , من غير أن ينتج من هذا كلّه – بالضرورة – تنظيمٌ وتبويبٌ وتنضيد , فهذه مقاييس ومصطلحات لا تأتي إلا بالدربة والقياس والخبرة , فبين الجاحظ والكتاب علاقةٌ عميقة غريبة عجيبة , فكأنّنا به لا يريد أن يفرغ من عملٍ بدأه إلا ليتابع فيه , أو ينتقل إلى سواه , وهكذا وهكذا .....,

فقد قال فيه أبو هفّان : " لم أرَ قطّ ولا سمعْتُ من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ , فإنّه لم يقع بيده كتابٌ قطّ إلا استوفى قراءته كائناً ما كان , حتى إنّه كان يكتري دكاكين الورّاقين , ويبيت فيها للنّظر "[5].

فإذا كانت سعة القراءة تنتج فكراً واسعاً عادةً , فكيف بنا أمام شخصيّةٍ وُجدت لتكون معرفيّة بامتياز مع ما كان عليه الجاحظ من تعدّد الميول, وتبدّل الحال .

– رغبته في دفع الملل والسأم عن قرّائه ومتلقّيه علماً بتباين فئاتهم ومستوياتهم , إلى جانب حرصه على إثبات عظمة علومه, وغناه المعرفي, فهو الذي قد حصّل ما قد حصّل على مبدأ الأخذ من كلّ علمٍ بطرف , ولم يكتفِ بهذا, ولم يقف عنده , فكأنّ أطراف العلوم لديه علوم وتخصّصاتٌ حقيقيّة , فقد كان إذا تناول أمراً أو مسألة سار فيهما وكأنّهما قضيّةٌ وهدف حتى إذا سنحت له مسألة جاب في آفاقها على نحوٍ دقيق , وهكذا الحال معه حتى بدا وكأنّ مسيره في دروب شتّى معاً . أضف إلى هذا أنّه لم يكن يخاطب إنساناً بعينه, ولا فئةً بعينها – عمريّاً أو ثقافيّاً أو سياسيّاً – ولهذا كان عليه أن ينوّع , ويلوّن , وينغّم خطابه وكلامه إلى حدّ يشدّ فيه الآخر أيّاً كان مستواه وميله وقناعاته.. .

– معرفته بطبيعة الحياة في عصره بوجوهها العلميّة والثقافيّة والدينيّة والسياسيّة , وانعكاس هذه المعرفة على إيمانه بمخاطر التصريح برأي قد يؤخذ عليه فيأخذه به لاحقاً من يوافقه فيه حاضراً ؛ بمعنى إلمامه بتبدّل الأحوال والأهواء والميول , فقد عرف مخاطر تهمةٍ قاتلة كالزندقة , ومصير أهليها .

والجاحظ الذي امتلأ علماً حتى فاض لم يكن ذهنه ليكلّ , ولا قلبه ليسكن , ولا لسانه ليستقرّ , ولا قلمه لينضبط أو يهدأ, فكان عليه لهذا كلّه أن يعرف كيف ينطق لسانه, ويخطّ قلمه ما يريد وكما يريد دون التعارض مع ما يراد له .

---

[5] – **الحموي , ياقوت ,معجم الأدباء ,75/16**

- طول حياته , واشتداد مرضه , وضخامة مؤلّفاته , فمن الفطرة أنّ المسألة إذا طالت وتضخّمت شملت متناقضاتٍ يصعب تبويبها وتنظيمها على نسقٍ متواتر , ولسنا نعني بهذا ضرورة حكم الفوضى في التقدير والتعبير , وكذلك لا ننفي تعمّد الاستطراد عند الجاحظ لأسبابٍ سبق ذكرها , لكنّ الظاهرة لا تعود إلى سبب واحد , أو حادثٍ بعينه. ولسائلٍ أن يسأل : هل كان الجاحظ يستطرد كثيراً لو كانت كتبه صغيرة الحجم , وموضوعات علمه ضيّقة , والمنهجيّة في عصره قائمة واضحة ؟ والإجابة عن هذا كلّه غير نهائيّة ولا قطعيّة . فمن يقرأ ما سطّره الجاحظ عن الكتب وعلاقته بها يعلم مدى ذلك الحبّ وعمقه , ويستنتج أنّ العلم لديه هدف , والقراءة عادة , وفي الزيادة لديه استزادة .

منهج الاستطراد عند الجاحظ في كتابيه : الحيوان , والبيان والتبيين

بدايةً وقبل كلّ درس لا بدّ من الكلام في هويّة المؤلّف , ونشأته , وطبائعه , وخصائص شخصيّته , وأسلوبه فيما ألّف . أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الفقيمي البصري , اختُلف في تاريخ ولادته , لكنّ تاريخ وفاته متفقٌ عليه بين المؤرّخين وهو 255هـ. كما اختلف في تاريخ ولادته اختُلف في أصله – لكن على الأرجح – هو كناني بالولاء , اعتماداً على كلام قريبه يموت بن المزرّع ت :304هـ : " الجاحظ خال أمّي ,وكان جدّ الجاحظ أسود يقال له فزارة , وكان جمّالاً لعمرو بن قلع الكناني "[6].لقّب بالجاحظ لجحوظٍ في عينيه , وكان يقال له أيضاً : الحدقي .ولد بالبصرة , وأخذ اللغة والأدب عن الأصمعي ت :217هـ , وأبي زيد الأنصاري ت :215هـ , وأخذ النحو عن الأخفش ت :211هـ , وأخذ الكلام عن النظّام , وتلقّف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد . كان مولعاً بالقراءة حتى قيل إنّه لم يقع في يده كتاب إلا أتمّه , ولم تطفئ الثقافة العربيّة ظمأه للعلم والمعرفة بل اعتمد على الثقافة اليونانيّة عن طريق علماء الكلام , ومشافهته لحنين ابن إسحق وسلمويه , وحذق الثقافة الفارسيّة من كتب ابن المقفّع وأخْذه عن أبي عبيدة وغيره .

ولعلّ أهمّ ما يمتاز به دقّة ملاحظة , وعمق نظرة وهبه إيّاهما خالقه ليضفيا على مؤلّفاته روحاً تخفق على مرّ الأيّام . حباه الله عمراً مديداً استطاع من خلاله مسايرة تطوّر الدولة العبّاسيّة في أوج قوّتها وضعفها , فقد كانت ولادته في خلافة المهدي ووفاته في خلافة المهتدي بالله 255هـ , فتاريخ الجاحظ تاريخ قرنٍ كامل تقريباً , عاصر فيه الدولة العبّاسيّة في أوج قوّتها , وضعفها , وقد عاش عزّاً أيّام حكم المأمون ؛ لأنّه كان يؤمن بالعقل , ويُعلي من شأنه فصار واحداً من أعلام المعتزلة الكبار . ترك لنا تراثاً عظيماً تفتخر بما بقي منه مكتباتنا , فهو لم يترك موضوعاً صغيراً ولا كبيراً إلا كتب فيه , وقد ذكرت المصادر أنهّ خلّف 360 مؤلّفاً بين رسالةٍ صغيرة وكتاب كبير , ولعلّ أشهر كتبه المطبوعة : الحيوان و البيان والتبيين و البخلاء و الرسائل, وقد وصف القدماء كتبه فقالوا : إنّها تعلّم العقل أوّلاً, والأدب ثانياً[7] .

---

[6] – **الأنباري , نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء , 148/1**

[7] –**هذه العبارة لابن العميد ,وروى قصتها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان , 473/3**

منهج كتاب الحيوان :

ليس المنهج ممّا يُرتجل , أو يُتّخذ بقرار , ولا هو موقفٌ عفوي , وانفعالٌ عابر , خاصّةً عندما يكون منهج كتبٍ ضخمة لمؤلّفين عظام . ولا بدّ للمنهج في التأليف من أسسٍ وميزات يقوم عليها , ويشتهر بها , وقد جسّد الجاحظ في كتابه "الحيوان" خصوصاً , وفي مؤلّفاته عموماً منهج الاستطراد القائم على التنقّل ما بين الفِكَر والموضوعات بما جعله مؤسّس هذا المنهج في التأليف غير منازَع . وقد كان واعياً لهذا المنهج يعرف ما له وما عليه , وكان يرمي إلى أهدافٍ بأعينها , وينوّه إلى نقاطٍ بذواتها من وراء اتباعه هذا المنهج بصورةٍ عامّة ؛فقد كان يعرف أنّ كلامه مقروءٌ على النّطاق الأوسع , و ليس لفردٍ أو لجماعةٍ دون باقي الناس , وفوق هذا كان يعلم ويصرّح بأنّ مؤلّفاته ينبغي لها أن تعيش وتقرأ في عصورٍ ستأتي , وكان لهذا كلّه يلوّن الكلام , ويوارب فيه , ويستقيم في التعبير حيناً ليزيغ حيناً ؛ فكأنّه يعطي من كلّ بستانٍ زهرة بعد أن نهل من كلّ منهلٍ شربة ؛ ليكون كاتباً وأديباً ومعلّماً وناقداً مع الكلّ وللكلّ في آنٍ معاً . ولا أدلّ على هذا من اتفاق الناس حول عظمته وعظمة ما جاء به , واتفاقهم حول الاضطراب في التعامل معه أسلوباً وفكراً بما كان لديه من استطراد , وضخامة فكر .

ومن يقرأ ما افتتح به كتابه " الحيوان" يقف على أمورٍ كثيرة شرط أن يقرأ ما بين السطور ليكشف ولو بعضاً ممّا كان في صدر الرجل قبل أن يصير في رأسه , فقد أجاد الجاحظ وأبدع في كلّ ما كتب لكنّه وفي افتتاحيّته للجزء الأوّل من "الحيوان" يبدو ما قصد إليه , وكثيرٌ ممّا كان يعانيه من حسد الحاسدين , وكيد الكائدين , وتسرّع المتسرّعين إلى جانب وجود غير قليل ممن رأوا في كلامه جنوحاً حيناً, وقسوةً حيناً, ومراوغةً أحياناً .ولن نطيل في هذا التوصيف قبل أن نقرأ ما خاطب به قارئه وحاسده قائلاً: "جنّبك الله الشبهة, وعصمك من الحَيرة , وجعل بينك وبين المعرفة نسباً , وبين الصدق سبباً , وحبّب إليك التثبّت, وزيّن في عينك الإنصاف, وأذاقك حلاوة التقوى , وأشعر قلبك عزّ الحق, وأودع صدرك برد اليقين, وطرد عنك ذلّ اليأس, وعرّفك ما في الباطل من الذلّة , وما في الجهل من القلّة " [8].

هذا كلامٌ كيفما نظرنا فيه نجد وضوحاً وبساطة ؛ فهو دعاءٌ ودعوة, دعاءٌ بالخير, ودعوةٌ إلى التروّي والحكمة, ولكنّ الإمعان في ثناياه يكشف غير قليل ممّا كان الجاحظ يرمي إليه, ولا ينبغي لنا الادعاء فيما نراه , أو نذهب إليه , أو نعتقد به أنّنا نصيب المفصل , ونقع على كبد الحقيقة , لكنّها قراءة وتبقى القراءة فعلاً مستمرّاً لا يكتمل ما دمنا نحلّل ونؤوّل ونعلّل . فبمجرّد الدعاء لحاسده , وقارئه, والآخذ عليه ما ذكر يتضمّن الإقرار بوحدانيّة الخالق الذي يجنّب الإنسان الشرور , ويأخذ بيده في سبيل الخير والفلاح , فهذا منطلقٌ ومنطقٌ إسلاميٌّ توحيديٌّ واضحٌ وصريح , وجديرٌ بالمؤلّف أن يقرّه , ويقرّ به في مطلع كتابه , لكنّ الإلحاح على الخطاب بضمير المفرد المخاطب , وفي جملٍ فعليّةٍ متتابعةٍ متناظرةٍ وكأنّها تتسابق في الخاطر, وعلى اللسان والقلم, هذا الإلحاح فيه من الإقرار بوجود كلّ شرّ ذكره, ووجوب كلّ خيرٍ نادى به , فأوّلاً الشبهة قائمة, ومنها أتى على ذكر الحيرة , وهذا مردّ الحسد له, والأخذ, والتثليب عليه . وأعقب بالدعاء بإقامة نسب المعرفة والصّدق فكأنّه يقول لمخاطبه: فلتُعملْ عقلك راجحاً, ولتستنطق قلبك صادقاً. ودليل هذا إثبات قيمة محبّة التثبّت لقطع الشكّ باليقين , والوقوف على الموضع الحق في كلّ رأيٍ أو مسألة أو خلاف, وتعليل هذا تعقيبه بزينة الإنصاف فكأنّه يرى قبح الظّلم والتجنّي قائماً في موقف حسّاده ومعارضيه, ولهذا يعظّم حلاوة التقوى, ويعظّم عزّ الحق, ولننظر في قوله: " أذاقك حلاوة التقوى " لكي يصلح اللسان, وكذلك في " أشعر قلبك عزّ الحق", فالحقّ في القلب, وهو موطن فكرٍ وإيمان, فلتكن يا حاسدي محقّاً فلا تحسد, ثمّ دعا له, ودعاه إلى اليقين ومنه البرد والسكينة, وبعد هذا يدعو له بطرد ذلّ اليأس, فاليائس في الدرس, وأيّ أمر ذليلٌ لعجزه, ونقص طاقته, ثمّ أشار

[8] -الحيوان , ج1 /3

إلى ما في الباطل من ذلّة, وما في الجهل من قلّة ؛ فكأنّه يقول : مَن أراد الباطل ذلّ قدراً , ومَن جهل قلّ قيمةً . وبعد هذا كلّه ألا نجده يصف من حسده, وخالفه, وأخذ عليه المآخذ والمثالب بكلّ ما تقدّم من أوصاف فيها من الضّعف, والعيب, والجهل, والتردّي الشيء الكثير , والغريب اللطيف في هذا كلّه أنّه يدعو له بلسانٍ فصيح دعاء المحبّ المخلص .

ومن أبرز معالم منهج الجاحظ في هذا الكتاب: التنويع والتلوين في الكلام , وعرض الرأي بأسلوب الاستطراد قاصداً بهذا دفع الملل والسأم عن قارئه ومتلقّيه, وهو يصرّح بأنّه ملوم محسود رغم عظمة جهده , وحسن قصده ؛ فكأنّه بهذا يردّ على من حسده, وعاب عليه, وخطّأه فيما رآه , أو ذهب إليه , ويصرّ الجاحظ على تفنيد آراء من عارضه , وتهجّم عليه في كتابه .

فالجاحظ لم يكن ليكتب الكتب لتهدى إلى شخصٍ , أو ليقرأها رجل , أو طائفة من الناس فهو كاتبٌ وأديبٌ ومعلّم , وعالمٌ موسوعيّ الثقافة أراد أن يلج فكره كلّ فكر فأولج قلمه في كلّ حبر ليبلغ من الشهرة كلّ زمنٍ ودهر , وإن لم يكن استطراد الجاحظ عائداً إلى فوضى في التفكير والمنهج – وهذا ما نرجّحه – فإنّ من أهمّ أسبابه أن يجد القبول لدى النّاس كلّهم على اختلاف مشاربهم , وميولهم , وتعدّد اتجاهاتهم , واختلاف مستوياتهم ؛ فكأنّنا به كاتباً عن النّاس كلّهم للناس كلّهم , وقد أكّد هذا في غير موضع من كتابه " الحيوان" وعموم ما ألّفه , ولننظر بعين الاهتمام في مثل قوله : "ثمّ قصدْتَ إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه , والاعتراض على لفظه , والتحقير لمعانيه , فزريْتَ على نحته وسبكه , كما زريْتَ على معناه ولفظه ثمّ طعنْتَ في الغرض الذي إليه نزعْنا , والغاية التي إليها قصدنا على أنّه كتابٌ معناه أنبه من اسمه , وحقيقته آنق من لفظه , وهو كتابٌ يحتاج إليه المتوسّط العامي , كما يحتاج إليه العالم الخاصي , ويحتاج إليه الريّض كما يحتاج إليه الحاذق : أمّا الريّض فللتعلّم والدربة , وللترتيب والرياضة , وللتمرين وتمكين العادة ؛ إذ كان جليله يتقدّم دقيقه , وإذ كانت مقدّماته مرتّبة وطبقات معانيه منزّلة . وأمّا الحاذق فلكفاية المؤنة ؛ لأنّ كلّ من التقط كتاباً جامعاً , وباباً من أمّهات العلم مجموعاً , كان له غنمُه , وعلى مؤلّفه غُرْمُه , وكان له نفعه , وعلى صاحبه كدّه , مع تعرّضه لمطاعن البغاة , ولاعتراض المنافسين , ومع عرضهِ عقله المكدود على العقول الفارغة , ومعانيه على الجهابذة , وتحكيمه فيه المتأوّلين والحَسَدَة ....

وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبة الأمم , وتتشابه فيه العُرْب والعجم , لأنّه وإن كان عربيّاً أعرابيّاً , وإسلاميّاً جماعيّاً, فقد أخذ من طُرَف الفلسفة , وجمع بين معرفة السّماع وعلم التجربة , وأشرك بين علم الكتاب والسنّة , وبين وِجدان الحاسّة, وإحساس الغريزة . ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ , ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه النّاسك , ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجدّ ذو الحزم , ويشتهيه الغُفْلُ كما يشتهيه الأريب ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفَطِن "[9]. فهذا الكلام الذي جعله الجاحظ شرحاً وتفصيلاً , ورأياً وتعليلاً حول كلّ ما جاء في كتابه وهو ما يزال في أوّل جزئه الأوّل لا بدّ موحٍ بمدى وعيه بما كتب , وبما أراد منه , عالماً بضخامة ما في الكتاب, وتنوّعه وغناه , والأدهى والأمرّ معرفته بآراء المنتقدين , ولوم اللائمين , وكمد الحاسدين , فكتابه موضع حاجة العامّة والخاصّة من الناس وأهل العلم, وهو في وصفه الكتاب بقوله : " كتابٌ معناه أنبه من اسمه , وحقيقته آنق من لفظه " كأنّه يتّهم من عابه عليه بأنّه أُخِذ بالاسم واللفظ فلم يتأنّ , ولم يتروّ , ولم يكن له من عمق الفكر نصيب , أوليس في هذا مطلق الردّ , وأقسى اللوم , وأوضح الحجّة على رأيه ومذهبه ؟ ثمّ إذا وجدناه يصف مضامينه بتقدّم الجليل على الدقيق , وترتيب المقدّمات , وتنزّل طبقات المعاني, أفلا يجدر بنا الإقرار بنأيه عن فوضى النّظم , وميله إلى ما فيه من استطراد عن وعيٍ وإرادة ؟ قاصداً ما

[9] –الحيوان , ج1 /10–11

أشرنا إليه من دفع مللٍ وسأم عن قارئ ربّما لا يصبر ولا يريد أن يتحلّى بالرويّة في القراءة والاطلاع إلا بما يتسنّى له من حبٍّ في العلم , ورغبةٍ في التبحّر فيه , بما في هذا كلّه من جهدٍ لا يقوم له إلا ذو صبرٍ وإرادة , وهل يكون الناس أكثرهم على هذا الشأن بينما الحياة تأخذ كلا في اتجاه ؟

وينافح الجاحظ عن كتابه وأسلوبه العام , ومحتواه , واستطراده في عرضه بتوجيه الأنظار إلى حجم جهده في تأليفه بينما قارئه يقبل على قراءته , ولم يسبق له بذل الجهد والكدّ في طلب مادة العلم , وترتيب عرضها في هذا الموضع أو ذاك .وبالانتباه إلى وصفه الكتاب بأنّه لكلّ الأمم , وفي العلوم عامّة , وموجّهٌ إلى النّاس صغيرهم وكبيرهم, فاتكهم وناسكهم , واللاعب اللاهي , والمجدّ الحازم , والغبيّ والفطن , بالانتباه إلى هذا الوصف العجيب – حتى عند من يجد فيه مبالغة – يمكن الجزم بعظمة الكتاب مادةً , وتنوّعاً , وتشعّباً , وتقاطعاً ممّا يجعل التوفّر على قراءته كاملاً أمراً متعباً , ومشكوكاً فيه , وليس ممكناً معه دقّة التصنيف والتبويب لما في ذلك من جهدٍ وكلل , فكان الحلّ عنده أن يتنقّل من مادة إلى أخرى يسلّي بنادرة , ويبسط موعظة , ويطرف بنادرة , ويشدّ بشعر , ويضحك بطرفة, فيتسنّى للقارئ أن يتعلّم من حيث يدري ولا يدري , وقد يكون هذا الأسلوب – رغم متاعبه – غاية في الفائدة قياساً بما تقدّم من ضخامة الكتاب , وتنوّع فئات المتلقين , ورغبة الجاحظ في إيصال الفكرة , والخبرة , والرأي إلى المجال الأوسع , والأفق الأرحب ؛ بمعنى أنّه الإنسان الذي يتعلّم من كلّ شيء , وعن كلّ شيء ليكون كما هو أساس الوجود , وعماد الحضارة .

وكيف لا يستطرد من عُرِف بتأسيسه أسلوب الاستطراد , وهو يعرض أضخم ما في رأسه من علومٍ ومعارف , ولئلا نغالي في هذا ينبغي لنا الإشارة إلى الأسباب التي لم يصرّح بها الجاحظ , وهي التي رأيناها رغبةً منه في التمويه والتعمية , وبثّ آراء ومواقف لم يكن التصريح بها سهلاً ولا ممكناً بل صعباً وخطيراً , علماً منه بما يمكن أن تخبّئه جعاب الزمن من حرابٍ في رؤوس الكائدين والحاسدين والمتسلّطين .

وإذا كان أدلّ الكلام على حقيقة رجل بعينه ما في كلامه من عرضٍ وتلميح , وإخفاءٍ وتصريح فإنّ قراءة ما وصف به الجاحظ كتابه في غير موضع تمكّننا من تبيّن حقيقة أسلوبه , والغاية التي كانت وراءه , حتى كأنّنا نراه يدعو إلى التنبّه واليقظة في تناول موادّ كتابه , داعياً إلى التأنّي والتقصّي والتحليل لكلّ ما نقرأ , وفي معرض وصفه الكتاب , والردّ على من عابه نراه يدلّل على كلّ هذا بأسلوبٍ سهل فيه من الإشارات ما فيه , فهو يقول منتقداً وموضّحاً : " وهذا كتاب موعظةٍ وتعريفٍ وتفقّهٍ وتنبيه . وأراكَ قد عبْتَهُ قبلَ أنْ تقفَ على حدوده , وتتفكّر في فصوله , وتعتبر آخره بأوّله , ومصادرَه بموارده , وقد غلّطكَ فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزحٍ لم تعرفْ معناه , ومن بطالةٍ لم تطّلع على غورها ؛ ولم تدرِ لم اجتُلبت , ولا لأيّ علّةٍ تُكُلِّفت , وأيّ شيءٍ أريغ بها , ولأيّ جدٍّ احتُمل ذلك الهَزْل , ولأيّ رياضةٍ تُجُشِّمت تلك البطالة ؛ ولم تدرِ أنّ المزاح جِدٌّ إذا اجتُلب ليكون علّةً للجِدّ , وأنّ البطالة وقارٌ ورزانة , إذا تُكُلِّفت لتلك العاقبة . ولمّا قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحدٌ من علم النّحو إلى ما يحتاج إليه حتّى يتعلّم ما لا يحتاج إليه , قال أبو شمر : إذا كان لا يُتوصّل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يُحتاج إليه , فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه , وذلك مثلُ كتابنا هذا ؛ لأنّه إنْ حملْنا جميع من يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مُرّ الحق , وصعوبة الجِدّ , وثقل المؤونة , وحلية الوقار , لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرّد للعلم , وفهم معناه , وذاق من ثمرته , واستشعر قلبه من عزّه , ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ , والكثرة من السآمة , وما أكثر من يُقادُ إلى حظّه بالسّواجير[10] ,

[10] –**الساجور : خشبة تعلّق في عنق الكلب**

وبالسّوق العنيف , وبالإخافة الشديدة " [11].فبمجرّد التركيز في صوغ هذا التوصيف نجد القارئ حاضراً في وعي الجاحظ من جهة كونه الغاية فهو المرميّ إليه بالموعظة , والمحتاج إلى تعريفه بحقائق الأمور ليتفقّه فيها , ولا يكون له ذلك إلا إذا نبّهه إليه تنبيهاً , ونقول هذا لأنّه قال : " كتاب موعظة وتعريف وتفقّه وتنبيه " ولم يقل : كتاب عظةٍ و حكمةٍ ومعرفةٍ وفقهٍ وانتباه ؛ فكأنّنا به يقول لقارئه : انتبه وتفقّه لتبلغ مجد المعرفة , وتأخذ الموعظة ممّا أكتب إليك . ثمّ نراه يقبّح تعييب الكتاب , وذمّه دون الوقوف على حدوده , والتفكّر في فصوله , واعتبار آخره بأوّله , ومصادره بموارده , وعدم معرفة الغاية من المزح فيه , فكأنّه يؤكّد أنّ فهم الكتاب لا يكون إلا بعد إتمام قراءته بالمعنى الصحيح لفعل القراءة بما فيه من وعي وقصد ورويّة وصبر, وإمكانيّة في الفهم لا تقلّ حجماً ولا نوعاً عن مستوى صاحبه الذي ألّفه , والدليل على هذا أنّه وصفه في غير موضع بأنّه كتاب العامّة والخاصّة والأذكياء وسواهم ؛ فكان الجاحظ لهذا كلّه يقدّم مسألة على نظيرتها , ويدخل فيما بينهما ثالثة قد لا تبدو مقنعة أو ضروريّة في موضعها فيحار في هذا العرض كلّ من لا يريد معرفة الأسباب إنّما يؤخذ بالنتائج , ويبقى القصد حبيس القاصد , ورهن الباحث حتى يتعب في الكتاب من يتعب , ويحار من يحار , ويتفهّم من يتعمّق , فإذا نظرنا إلى عرض الجاحظ أموراً وأخباراً بأعينها في مواضع وسياقات لم يكن ظاهر الموضوع يقبلها أو يقتضيها وجدنا للحقيقة طرفاً ربّما يقودنا إلى جوهرها .

" لقد تعدّدت تفسيرات الدارسين لمنهج الاستطراد في كتب الجاحظ بعامّة , وكتابه الحيوان بخاصّة ؛ فأرجعها بعضهم إلى فوضويّة في التأليف[12] , وأرجعها بعضهم الآخر إلى غزارة علومه ومعارفه إلى درجة عجز معها عن إحكام سيطرته عليها كلّما عكف على الكتابة[13]. أمّا نحن فنجد فيما أثبتناه ما يكفي للدلالة على أنّ الاستطراد عنده لم يكن فوضى , بل منهجٌ في التأليف دقيقٌ وصعب إن لم يكن غايةً في الدقّة والصعوبة , وذكيٌّ معقّد إن لم نقل غاية في الذكاء والتعقيد , بريءٌ من التسطّح والمباشرة , محكمٌ لا يفضي لك بمكنونه بسهولةٍ أو يسر , إنّما بالقراءة الهادئة والمتأنية التي تعنى بما بين السطور أكثر من عنايتها بما خُطّ في السطور" [14].

نعم كانت علوم الجاحظ ومعارفه أكبر وأعمق وأوسع من أن يسيطر عليها بسهولة و يسر في أثناء انكبابه على التأليف , لكنّه بالمقابل لم يكن بالمؤلّف البسيط أو القليل الخبرة , فهذه الفخامة المعرفيّة لا تكفي لكي تكون سبب استطراده الأوحد , ثمّ لم تكن غاياته التي صرّح بها من دفع مللٍ أو سأم عن قرّائه ومتلقّيه لتولّد هذه الظاهرة الأسلوبيّة التي توارب فيها خيوط المعارف , وتتداخل معها الظلال , وليس لنا أن نركن إلى حكم الفوضى , وضعف التدبير عند ذلك الذهن المتوقّد ذكاءً وحماساً للعلم , والتأليف فيه .

فالاستطراد عند الجاحظ منهجٌ أراده عن وعي وإرادة ليلوّن كلامه , ويشدّ إليه فيغني قارئه , ويمدّه بفيض معارفه , ويمرّر له ما أراده من فكر ومواقف لم يكن سهلاً الجهر بها , فكان بهذا وذاك كالقابض على جمر المعرفة لا يرضى إطفاءه , ولا يستطيع إدمان حبسه في يده , وليس مسموحاً له إلقاؤه في كلّ جهةٍ يريد , فاختار أن يلتفّ على الأمور والمسائل ويوارب ويناضل لابتكار الصيغ التي يلقي بها حرّ علومه فيبعث الدفء في عقول المتلقّين فلا هي تموت ببرد الجمود , ولا عقلُه يُقتل بوهج التميّز , فالمعلوم أنّ الأرض المرتوية تنتج الينابيع , وليس مهمّاً بعد هذا كيف تتجلّى , وأين تتجه ؟

---

[11] – الجاحظ ,الحيوان , ج1 /37 – 38

[12] – الطرابلسي , أمجد , ص130

[13]–إسماعيل , عز الدين , ص :141

[14] – زردة , يوسف , مصادر التراث العربي , ص : 137

منهج كتاب البيان والتبيين :

جرى الحديث حول الجاحظ ومنهجه في غير قليلٍ من الأبحاث والدراسات , لكنّ الآراء والمواقف تلاقت وتداخلت عند كونه مؤسّس أسلوب الاستطراد سواءٌ من قَبِل هذا , أو من عابه عليه , وقد لا يكون موقفنا منطقيّاً إذا عظّمنا من شأن الرجل المؤلّف , ثمّ أخذنا عليه أسلوبه في كلّ ما ألّف .

لقد افتتح الجاحظ كتاب "البيان والتبيين" دون مقدّمة ؛ إذ بدأ كلامه بالتعوّذ من العيّ والحصر , حيث قال : " اللهمّ إنّا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل , ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العُجب بما نحسن , ونعوذ بك من السّلاطة والهذر , كما نعوذ بك من العيّ والحَصَر , وقديماً ما تعوّذوا بالله من شرّهما , وتضرّعوا إلى الله في السلامة منهما [15]".

ولنا أن نتساءل حول بداية كهذه ؛ فهو يفتتح الكلام في موضوع اللغة والفصاحة والبلاغة , ومعروفٌ ما في هذا كلّه من أهميّة وخطورة تتماشيان , وتتداخل فيما بينهما الخطا والخطوط , والجاحظ من أدرى الناس بمكانة البيان عند العرب حتى اختار هذا الموضوع الهائل , الشائك , الجميل , اللطيف , وجعله عنواناً لكتابه الذي وبحكم تقدّم عمره في أثناء تأليفه كان يدرك أنّه إن لم يكن آخر ما يكتب فإنّه على الأقل من أواخر ما سيخطّه حبره من بحر فكره.

وبالتوقّف عند اختيار العنوان يمكن القول : إنّ الجاحظ أراد أن يمخر هذا العباب ليقول إنّ لغة العرب بالمكان المكين , وفي هذا نوعٌ من إثبات انتمائه إلى الثقافة العربيّة , وقوّة هواه العربي بما في هذا من تقرّب إلى أهل السلطة آنذاك , وابتعادٍ عن موقف المناهضة للعنصر العربي , هذا إذا أدركنا – كما هو معروف – ما في الكتاب من ردّ على الشعوبيّة في مهاجمتها العنصر العربي الإسلامي . وقد تكون هذه المعطيات طرف الخيط في مسألة انتهاج الجاحظ هذا المنهج في هذا الكتاب العظيم ؛ إذ لا بدّ لأيّ دارس أو مؤلّف في مجال البيان العربي من أن يوجز حيناً , ويسهب حيناً , ويسترسل حيناً , ثمّ يعرض خبراً من هنا , وشعراً من هناك ليقف عند خطبة ما , وحادثةٍ مشهورة , فيمرّر نادرة مرّة , ويطرف بطرفة مرّةً أخرى , وليس هذا مجرّد حالة عشوائيّة قطعاً , ولا هو مركبٌ ذلولٌ البتّة . فهذا الأسلوب لا يمكن للإنسان أن يتبعه إلا وهو ملمٌّ بالأمور ومخاطرها , ويمتلك من الخبرة والمهارة ما يجعله يسيطر على أفكاره ليسردها ويضعها في سياق لتكون بالنهاية كتاباً . فإذا جاز لبعضهم الجزم بأنّها فوضى في التأليف فإنّ بالإمكان أن نقول : وكيف للفوضى أن تنتج كتباً على هذا القدر من الحجم والأهميّة والمكانة ؟ أفليس في الصورة تناقض واضح ؟

ولا نعني بهذا أنّ الجاحظ كان بعيداً عن الفوضى كلّ البعد , إنّما نرجّح أنّه – على الأقلّ – غالباً ما كان يتعمّد هذه الفوضى أو هذا التنويع لأسبابٍ صرّح بها مراراً , وأخرى حاولنا تسليط الضوء عليها .

فقد أكثر الجاحظ من إعلان رغبته في الحديث حول بعض المسائل , لكنّه أعلن تأجيل تناولها إلى موضعٍ آخر لبعض التدبير , يضاف إلى هذا أن لا وجود لأمرٍ, أو شيء, أو إنسان لا يتّصل بمحيطه العام والخاص اتصالاً يجعل بالإمكان تناوله في أكثر من موضع , وأكثر من مناسبة , وعلى أكثر من موقف, ووجهة نظر .

فالجاحظ يعلّل استطراده في الحديث عن الإنسان , والفصل ما بين الذكر والأنثى فيقول : " وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان , وفي فصل ما بين الذكر والأنثى تامّاً , وليس هذا الباب مما يدخل في باب البيان والتبيين , ولكن قد

[15] – **البيان والتبيين , ج1 /3**

يجري السبب فيُجرى معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب , لأنّ خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم كان ذلك أروح على قلبه , وأزيد في نشاطه [16] ....."

ويفتتح الجزء الثاني من الكتاب بالتصريح بإرادته الردّ على الشعوبيّة لكنّه يؤجّله ليتناول كلام الرسول الكريم , والسلف المتقدّمين , فيقول : " أردنا – أبقاكَ الله – أن نبتدئ صدر هذا الجزء من البيان والتبيين بالردّ على الشعوبيّة في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم ؛ إذ وصلوا أيمانهم بالمخاصر , واعتمدوا على وجه الأرض بأطراف القسيّ والعصيّ , وأشاروا عند ذلك بالقضبان والقنيّ , وفي كلّ ذلك قد روينا الشاهد الصادق , والمثل السائر . ولكنّنا أحببنا أن نصيّر صدر هذا الباب كلاماً من كلام رسول ربّ العالمين , والسّلف المتقدّمين .. [17] "

فإذا أحسنّا النيّة وجدنا من اللياقة تقديم الكلام حول كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم , والسّلف المتقدّمين بما في هذا من مراعاة المقام , وضرورة الحال , ومن بابٍ آخر يمكننا أن نرى في هذا نوعاً من محاباة أهل السلطة , وأنصار الثقافة الإسلاميّة عامّةً , والعرب منهم خاصّةً , وبين هذا وذاك يظلّ الجاحظ صاحب الظلّ الموارب بفكره العميق , وغاياته البعيدة من غير أن نغالي فننسف عظيم علمه ومكانته في الأدب والتأليف .

فالطريقة التي ينسج بها الجاحظ كلامه موسومة بصوى وعلامات يشير كلٌّ منها إلى مواقف وغايات , ومفرداتٍ معرفيّة تتكامل فيما بينها لتكوّن هذه الحالة الجاحظيّة , فلطالما اعترضَ الكلام بصيغ الدعاء للقارئ بما يؤكّد أنّه حاضرٌ في ذهنه وغايةٌ في نفسه , وفي كلامه السابق تلخيصٌ بارع لمزاعم الشعوبيّة , وتأكيد لقوّة الردّ عليهم بما يجعل القارئ في حالة تحفّز وشوق لقراءة ما سيأتي به , لكنّه يعود فيصدّر بكلام رسول ربّ العالمين , وإن لم يكن هذا من صحّة الدين فهو إقرارٌ بأهميّة كلام الرسول صلّى الله عليه وسلّم , واحترام لثقافة القارئين ودينهم بما في هذا كلّه من حنكةٍ ودراية تستحقّ التقدير .

ومهما أوجزنا أو أطلنا الحديث حول منهج الجاحظ في "البيان والتبيين" فإنّنا لن نبلغ الغاية المرتجاة في إقرار سمات منهجه , وإعطائها تمام حقّها إلا بعد دراسة تحليليّة للكتاب تمكّننا من التعمّق في فهم طبيعة تفكير مؤلفه, وشخصيّته , وميوله لتبيّن لنا أنّ الجاحظ في " البيان والتبيين " قد عرف ما أراد أن يقوله في كلّ المسائل قبل أن يقوله , وحدّد مواضع المسائل , وترتيب الأبواب بناءً على غاياتٍ وأسباب صرّح بها وعلّلها أحياناً سواءٌ قبلنا هذا أم لم نقبل . ولكنّه رغم هذا لم يبعد عن حالة الاستطراد في سرده الحوادث والمواقف لأنّ تلك عادته التي تعوّدها واستنّها سنّةً في مؤلّفاته عامّةً , وإن تباينت حدّتها من موضع لآخر . فمن القسوة أن نقول : إنّها الفوضى تماماً ؛ لأنّ هذا يعني اضطراب فكرِ علَمٍ من أعلام التأليف في عصره ,ومن السّذاجة القول : إنّ في البيان والتبيين منهجاً محكماً لم يأته الاضطراب بصورة تنوّع واستطراد غير مسوّغين كلّيّاً .

لكنّه الجاحظ الذي لا يسلم قيادة فكره الجموح بسهولة , فلا يسلم الحكم عليه من الاضطراب والتجنّي ما لم يتروّ القارئ ويتمعّن في ظلال عباراته , ومواقفه التي برع في إيداعها بين السطور .وهذه طبيعة الحال أن يغرق كلّ من لا يجيد السباحة ؛ فقد تأخذ أمواج الفكر ألواح الهدى إلى حيث لا يُحمَد المآل , وقد لا يكون في الاختلاف خلافٌ بقدر ما فيه من ثراء ويدلّ – حكماً – على عظمة قدر ما نختلف حوله , ولا تباين أشدّ من تباين مواقف الناس حول طبائع الفكر , وأعمال العقل , بما تحتاج من إعمال الذهن , وكبح النفس عن شرارات الأهواء , ولا نصف بهذه الصفات كلّ ذي رأي إنّما هي لمن يسلم ذهنه لقلبه وبصيرته لبصره .

---

[16] – البيان والتبيين ,ج1 /186

[17] – نفسه ,ج8/2

منهج التّصنيف والتّبويب :

حين قلنا إنّ الاستطراد منهجٌ له مؤسّس , وأسبابٌ , ودلالاتٌ , وظلالٌ لم نكن نقصد إعلاء شأنه بقدر ما كنّا نريد دراسة تلك الأسباب والدلالات , وربطها بالواقع العام , والوسط المحيط . والآن وفي إطار تناول منهج التصنيف والتبويب نريد أن نقف على أسباب بروز هذا المنهج , ونقفوَ معالمه وأسبابه لنصل إلى فضل قيمته وأثره في تسهيل فعل القراءة , وتمكين كلّ قارئ ممّا يريد بالجهد الأقلّ , والوقت الأقصر .

وهذا المنهج بصورةٍ عامّة قائمٌ على أن يعمد المؤلّف إلى توزيع المفردات المعرفيّة ضمن أبواب تحمل عناوين وأسماء تشير بوضوح إلى كلّ ما يأتي فيها من أفكار وأخبار وأشعار, من غير أن يكون بينها من الاختلاف أو التباعد ما يُصعِب إدراجها متجانسة أو متقاربة حتّى يتكوّن منها في تجاورها واتصالها كتابٌ متكامل الجوانب والأفكار .

وإذا لم يكن للتصنيف والتبويب من فضلٍ سوى أنّه يمكّن القارئ من أن يعرف ما سيقرأ قبل أن يهمّ بفعل القراءة – إلى حدٍّ ما – فهذا أمرٌ جليل, وخاصّةً لأنّ أسلوب الاستطراد في مؤلّفات ذلك العصر– وهي ضخمةٌ جداً – كان شائعاً ومربكاً إلى حدٍّ بعيد , فكان لا بدّ من بروز هذا المنهج ليكون للقارئ مُعيناً ومَعيناً, لا مَعيناً يحتاج قاصده جهداً مضنياً . نضيف إلى هذا أنّ ذلك العصر كان عصر توثّب الفكر, ونتاج القرائح التي لم تكن لتنضب, ولا بدّ لها– تالياً – أن تطوّر, وتغيّر, وتجدّد في النوعيّة, و الكميّة , والكيفيّة .

ومن هنا يمكن أن نقول : إنّ تطوّر أساليب التحصيل والتفكير كانت بحاجة إلى تغيير في وسائل التأليف والتعبير, ومهما وجدنا من تقارب بين طرائق اكتساب العلوم والمعارف إلا أنّ عقوداً من العصر العباسي لا بدّ لها أن تحمل الجديد , أو تمهّد لولادة أساليب جديدة , ولسنا ننتظر من هذا المنهج أن يشطب بجرّة قلم معالم أسلوب الاستطراد كليّاً ونهائيّاً ؛ لأنّ لكلّ منهجٍ أوأسلوب شيئاً في النفس البشريّة تحتاجه وترتاح إليه مهما تغيّرت الظروف , وتبدّلت الأحوال والهيئات .

وإن كان الجاحظ سابقاً قد ألمح إلى رغبته في جعل القارئ يُقبل على كتبه بكلّيةٍ لئلا يكون الكتاب كتباً , والعنوان عناوين , وقد حكينا بعضاً من أسبابه وغاياته في ذلك كلّه , فإذا كان الجاحظ قادراً على انتهاج الاستطراد , والمحافظة على نسيج الكتاب , وصحوة القارئ فإنّ مقدرته تلك لا تتسنّى لكثيرٍ من الناس ؛ بمعنى أنّ ذلك الفخّ قد يقضي على فكر المؤلّف قبل أن يودي بذهن القارئ إلا ما شاء الله , وهنا لا بدّ من الاعتراف بأنّ بروز منهج التصنيف والتبويب كان بحكم الضرورة بوصفه انعكاساً لنضج فكر المؤلّف من ناحية , وصدى لحاجة القارئ إلى نوع من الدقّة والتحديد والوضوح من ناحيةٍ أخرى .

وبعد هذا كلّه , فالظواهر لا تولد كاملة , وليست نشأتها وفق قوانين محدّدة واضحة معلنة ؛ إذ تبقى حالة التأثّر والتأثير هي الحالة السائدة , ولا بدّ لمن يكتسب العلوم بطريقة ما , أو أساليب معيّنة أن يتأثّر في تقديمها , وإظهارها بالطرائق التي تلقّاها بها , وهنا يكفي المؤلّف شرفاً أن يطلق شرارة التغيير أو التطوير في المنهج لتكون على الأقل خطوة أولى في مسيرة الفكر الإنساني الذي لا يكتمل إلا ليتابع , ولا يتابع إلا ليتغيّر , وقد يقفو أحدٌ أحداً من غير أن يقصد , وقد يفعل ما كان ينتقد واعياً أو غير واعٍ .

نقول هذا لأنّ أعلام منهج التصنيف والتبويب لم تخلُ مؤلّفاتهم من بعض الاستطراد أحياناً , ولأنّ أعلام الاستطراد قبلهم كانوا يرمون إلى استطراداتهم عن وعيٍ ودراية ولغاياتٍ معلنة حيناً , ومبطّنة أحياناً ؛ بمعنى أنّ كلاً من المنهجين طريقةٌ عقليّة تعكس طبيعة الحياة فكريّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً , وتعكس شخصيّة صاحبها , وموقعه , وموقفه , وأهدافه من جهةٍ أخرى .

وعندما نتناول منهج التصنيف والتبويب لا بدّ أن نعود إلى بداية المسألة لنجدها عند علمين اثنين من مؤلّفي القرن الثالث الهجري ' أوّلهما ابن قتيبة في " عيون الأخبار " , وثانيهما : المبرّد في " الكامل "؛ إذ لا بدّ لكلّ ظاهرة من رجل يحمل رايتها , ويكون علماً عليها , وهنا يبرز اسم ابن قتيبة , فمن الرجل ؟ وكيف تكوّنت شخصيّته الفكريّة ؟ وأيّة هويّةٍ ثقافيّة مثّل في حياته ومؤلّفاته ؟

عيون الأخبار لابن قتيبة :

أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة , فارسي الأصل , ولد في بغداد أو الكوفة على خلاف في ذلك , وتولّى قضاء دينور فترة من الزمن , ومن ثمّ فقد عُرف بالدينوري .

عاش من سنة 213هـ إلى سنة 276هـ , وقد جمع – كالجاحظ – بين مختلف الثقافات السائدة في زمنه من عربيّة وفارسيّة وهنديّة ويونانيّة , وجمع بين مذهبي البصرة والكوفة في النحو واللغة , وإن كان يغلو في البصريين كما يقول ابن النديم [18].

شبّ ابن قتيبة في بغداد,وكانت يومئذ مهد العلم , ومنتدى الأدب , ومدينة الحضارة فأكبّ على الدرس , وجدّ في التحصيل على علماء الحديث وأئمّة اللغة والرواية وشيوخ الأدب وقد شغل ابن قتيبة بعلمه وتصنيفه في العلوم كافّةً كثيراً من بني عصره حتى أراده كثيرٌ منهم , وتعصّب له غير قليل ."كان ابن قتيبة واسع العلم , رحب الفكر , ثقة , ديّناً , فاضلاً , ولذلك فإنّ أهل المغرب قد تعصّبوا له تعصّبهم للإمام مالك , فقالوا : من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة , وأكثر من ذلك كانوا يتبرّكون به ويقولون : كلّ بيت ليس فيه شيء من تصنيف ابن قتيبة لا خير فيه , ولعلّ السبب الأكبر في ذلك هو أنّ ابن قتيبة قد ألّف أكثر من كتاب عن القرآن والحديث يردّ فيه على بعض انحرافات الفلاسفة وعلماء الكلام[19] ".

كان كثير التصنيف فألّف زهاء ثلاثمائة كتاب , بين أيدينا أربعة عشر كتاباً مطبوعاً , وثلاثون كتاباً مخطوطاً منتشرة في مختلف مكتبات العالم , معظمها في القرآن والحديث والكلام والفقه والأخلاق والتاريخ والنحو واللغة والأدب , ومؤلّفاته المطبوعة هي : – عيون الأخبار – الشعر والشعراء – أدب الكاتب – المعارف – المعاني – تأويل مختلف الحديث – الإمامة والسياسة – الأشربة – الردّ على الشعوبيّة – مشكل القرآن – الميسر والقداح المسائل والأجوبة في الحديث – الاختلاف في اللفظ والردّ على الجهميّة – تفسير سورة النور .

اشترك في النزاع العقدي , ومال إلى أهل السنّة , ودافع عنهم ضدّ المعتزلة , وهذا يفسّر لنا موقفه غير الودّي من الجاحظ , وهجومه عليه في كتابه " تأويل مختلف الحديث" بصفةٍ خاصّة , ثمّ شارك في الصراع العنصري , ولزم جانب العرب على الرّغم من أصله الفارسي , وكان يقول في مهاجمة الشعوبيّة : " لا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها (أي الشعوبيّة) عمّا تدعيه لها جهلتها [20]".

ولهذا لا يمكن أن يوضع رجل مثله في دائرة ضيّقة , أو يُعطى صفة محدّدة بناءً على علمه , أو طريقة تأليفه , أوموقفه وموقعه الديني أو القومي أو العرقي , فالرجل عنصرٌ جامعٌ لا مفرّق , ومؤلّفاته صارت مصادر علم يرجع إليها القارئ حتى يومنا , ويغتني بجليل ما فيها من مفردات معرفيّة .

منهج كتاب عيون الأخبار :

---

[18] الفهرست , ص: 85

[19] – ينظر : الشكعه , مصطفى ,مناهج التأليف عند العلماء العرب , ص : 186

[20] – إسماعيل , عز الدين ,المصادر الأدبيّة واللغويّة , ص:166

لم يوجد في كتب تراثنا كتاب حدّد مؤلّفه ما أورد فيه كاملاً وفق نظامٍ واضح محدّد مثلما هو كتاب" عيون الأخبار "لابن قتيبة , فقد وضع لكتابه هذا مقدّمة متميّزة في دقّة توصيفها موادّ الكتاب كاملةً على تنوّعها وغناها , واختلاف ألوانها و صنوفها , كما بيّن أنّه ألّف الكتاب للناس كافّةً على اختلاف مشاربهم , وميولهم , ومستوياتهم في المجالات كافّةً . هذا كلّه يجعل من يقرأ هذه المقدمة يظنّ وكأنّه يقرأ المقدّمة والكتاب في آنٍ معاً , بل وكأنّه يسمع ويرى ما كان من تعليقٍ أو حوار جسّده ابن قتيبة في تعليله اتباعه هذا المنهج , وعرضه إيّاه في هذه المقدّمة على هذا النحو . فقد أوضح ابن قتيبة غايته من تصنيفه كتابه على هذا النحو ؛ بمعنى أنّه فهم مقولة " لكلّ مقامٍ مقال" على نحوٍ خاصّ ودقيق , وهي أن يكون المقال محصوراً بالمقام , وليست العلاقة بينهما مجرّد حالة ضرورة في التناسب وحسب ؛ فهو المؤلّف ذو العقل المنهجي , وقد برع في وصف منهجيّته , وتعليلها براعته في المنهج بحدّ ذاته , وهذا وجه القوّة في أسلوبه ؛ بمعنى أنّه استنّ السنّة في التأليف , وعلّلها , وأقنع بما فيها من خيرٍ وفضل على عقول القرّاء والمتلقّين , فلنتبيّن فحوى كلامه في وصفه هذا المؤلَّف : "وهذه عيون الأخبار نظمتُها لمغفل التأدّب تبصرة ولأهل العلم تذكرة ولسائس الناس ومسوسهم مؤدباً وللملوك مستراحاً من كدّ الجدّ والتعب , وصنّفتُها أبواباً وقرنْتُ البابَ بشكله والخبر بمثله والكلمة بأختها ليسهل على المتعلّم علمها وعلى الدارس حفظها وعلى الناشد طلبها , وهي لَقاح عقول العلماء , ونتاج أفكار الحكماء وزبدة المخض وحِلية الأدب وأثمار طول النظر والمتخيّر من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف [21]" . فهو في هذا لا يكتفي بتوصيفه كتابه , بل كأنّنا به يحضّ الإنسان أيّاً كان على الإقبال عليه بكلّ ما تسنّى له من مقدرة على القراءة والتحصيل ؛ فهو كتابٌ للناس عمّا يهمّهم في دنياهم وآخرتهم معاً , فهو لا يتوجّه بكلامه إلى طائفة من البشر دون أخرى ولا إلى أصحاب ميل في الحياة والهوى دون أصحاب الميول الأخرى , وقد صرّح بهذا كلّه مباشرةً في مقدّمته ؛ إذ قال : "ولم أرَ صواباً أن يكون كتابي هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواصّ الناس دون عوامّهم ولا على ملوكهم دون سوقتهم , فوفّيتُ كلّ فريقٍ منهم قِسْمَه ووفّرْتُ عليه سهمه وأودعته طُرَفاً من محاسن كلام الزهّاد في الدنيا وذكر فجائعها والزوال والانتقال وما يتلاقون به إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افترقوا .....، ولم أُخْلِه مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة لئلا يخرج عن الكتاب مذهبٌ سلكه السالكون وعَروضٌ أخذ فيه القائلون , ولأروّح بذلك عن القارئ من كدّ الجدِّ وإتعاب الحق فإنّ الأذن مجّاجة وللنّفس حمضة , والمزح إذا كان حقّاً أو مقارباً ولأحايينه وأوقاته وأسبابٍ أوجبتْه مشاكلاً ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصّغائر إن شاء الله .وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روي عن الأشراف والأئمّة فيهما , فإذا مرّ بك أيّها المتزمّت حديثٌ تستخفّه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به .....وإنّما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين...[22]". وقد نتساءل : لمَ كلّ هذا التوصيف بما فيه من تمجيد للكتاب , والغاية المرتجاة منه ؟

لكنّ الإجابة عن هذا كلّه بسيطة إلى حدّ الوضوح , وربّما اليقين , وهي أنّ ابن قتيبة لم يضع هذا الكتاب إلا بعد أن عُرِف في رحاب الفكر والتأليف , فأراد أن يكون كتابه ميسماً له , وبصمةً قويّة في رياض الثقافة التي كانت مضمار العظمة , ومكمن الشهرة , وبيت القصيد لكلّ طالب مجدٍ في تلك الحقبة من حياة أمّتنا , وهو العالم بأنّ فئةً من الناس في إجلالها له أو لسواه لا تجعله في المستوى الذي تبلّغه إيّاه حالة القبول عند الناس كافّةً , فلو كانت الغاية ذاتيّة – وهي مشروعة – لكان الحال كذلك , وإن كانت علميّة إنسانيّة لكان الأمر أعظم وأهمّ , بما في هذا كلّه من مرّ

[21] – عيون الأخبار – مقدمة الكتاب ص :ح – ط

[22] – نفسه :ط – ى

الحقّ , وقسوة الحقيقة , وثقل الجهد , وحلي الفضل , ورضا القناعة , وكنز المجد ؛ فقد أراد أن يبدع في المنهج لا أن يبتدع , فشقّ طريق التصنيف والتبويب بما فيه من قوّةٍ ووعي , وحافظ على التنوّع والاستطراد بما فيهما من غنىً وإمتاع ؛ لأنّ الجديد وإن حلا في النفوس , والتجديد وإن صحّ في الأذهان , تبقى للمنهج القديم حلاوته في كلّ نفس وأثره في كلّ ذهن وهذا سرّ الاستمرار . ولربّما كانت هذه الصورة هي الأمثل لكلّ أسلوب في الابتكار والتجديد ؛ إذ لا ينهي حاضر الأيّام ماضيها , فلا يكون الانتقال عن الظاهرة تخلياً عنها بل تطويراً لها , فيبقى من كلّ مأثور أثر , ونستطيع بهذا أن نلمح آثار الأسلوب في الأسلوب , وتلاقي المنهج بالمنهج لتتكوّن بهذا كلّه صبغة العصر الفكري بأبعادها الحضاريّة , فتكوّن الروافد نهراً , وتبقى الأفكار, وتنمو عصراً فعصراً .

فنحن لا ننتظر من المؤلّف أن يكون كما نريد له , بل أن يكون كما هو حقيقةً في سعة تحصيله , وعمق معارفه أوّلاً ثمّ في عظمة عرضه هذه المعارف وفق أسلوب منتظم الفكر , حسن العرض , واضح الدلالة ثانياً, أمّا غاياته فهي له , ولسنا حكماً على المؤلّفين إلا بقدر ما نحن نحتاج من فهمهم وفي فهمهم أيضاً . فابن قتيبة يرى أن لا ضير في أن يأخذ أو يروي عن صغار الناس وكبارهم سواءٌ صغار الأمور أو كبارها , فالمعرفة هي الهدف , وهي الوسيلة معاً ولا ازدياد بلا استزادة ؛ فقد قال : "واعلم أنّا لم نزل نتلقّط هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة وعن جلسائنا وإخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات الكتّاب في فصول من كتبهم وعمّن هو دوننا غيرَ مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنّاً لحداثته , ولا عن الصّغير قدراً لخساسته ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلاً عن غيرها , فإنّ العلم ضالّة المؤمن من حيث أخذه نفعه , ولن يُزرى بالحق أن تسمعه من المشركين ولا بالنصيحة أن تُستنبط من الكاشحين , ولا تضير الحسناءَ أطمارُها ولا بنات الأصداف أصدافُها ولا الذهبَ الإبريز مخرجُه من كبا , ومن ترك أخذ الحسن من موضعه أضاع الفرصة , والفرص تمرّ مرّ السّحاب[23] " .

نعم هي الحكمة ضالّة المؤمن , وهي لا تكون مجرّدة منزّهة عن سواها من الأمور , كما حال الذهب لا يوجد خالصاً واضحاً إلا بعد العناء في استخلاصه من مناجمه , وكذلك الحكمة منجمها الحياة بكلّ أبعادها وزواياها .أمّا في إطار موادّ "عيون الأخبار" فإنّ ابن قتيبة قد خفّف عن كلّ قارئ جهداً جمّاً من خلال مقدّمته التي سبق وصفها بما هي عليه من دقّةٍ وأهميّة وروحٍ علميّة ؛ فهو يحدّد كلّ ما في الكتاب ضمن أبواب وفصول , وتحت عناوين ومسمّيات محدّدة تحديداً دقيقاً في مستوى من التناسب طريف بالنسبة إلى مؤلّفي عصره جميعاً

وبما أنّ الكتاب يحمل هذا العنوان فإنّ من الطبيعي أن تتراجع شخصيّة المؤلّف , وينحصر دوره في اختيار الأخبار, وتدوينها , وترتيبها , بما في هذا من أثر لشخصيّته في اختيار المادّة , وطريقة تنسيقها مع سواها , ومن هذا الباب لا يمكن لابن قتيبة أن تظهر شخصيّته ظهور شخصيّة الجاحظ فيما اختار وعرض وألّف .

الكامل

لا يسعنا ونحن ندرس مناهج التأليف في القرن الثالث الهجري إلا أن نقف بكلّ رويّةٍ وانبهار يصعب الجمع بينهما أمام تلك المؤلّفات التي تعكس عظمة هِممَ أصحابها , وعلوّ شأنهم في ميدان العلوم والتأليف على سعته ورحابته, وشدّة ما فيه من إشكالات , وتداخل خيوط , وقد يكون كتاب الكامل واحداً من أبرز تلك المؤلّفات ؛ إذ ليس من درسٍ في اللغة والأدب إلا واتكأ على شيء منه, وقبل أيّ خوضٍ في منهج هذا الكتاب نقف قليلاً عند صاحبه المبرّد . هو محمّد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي , وكنيته أبو العبّاس , وشهرته المبرّد , ولد في عام 210هـ وتوفي في

[23] –نفسه , ص :م

عام285هـ , أي أنّه عاش عصر الثقافة المزدهرة , والسياسة المصطخبة ؛ إذ وُلِد في عصر المأمون , وتوفي في عصر المعتضد .

اختُلف في سبب تسميته المبرّد, بل اختُلف فيما إذا كانت هذه الكلمة بفتح الراء أو بكسرها , وفيما إذا كان هذا اللقب ذمّاً أو مدحاً وقد "ترك المبرّد جملةً من الكتب في أكثر من ميدان معرفي , تنوّعت موضوعاتها بين الأدب , والنّوادر, والأخبار, واللغة, والنّحو, والأنساب, والعلوم القرآنيّة والبلاغيّة وغيرها , منها : كتاب الفاضل , والمقتضب , وما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن , وإعراب القرآن , والقوافي , والعروض , والمقصور والممدود , وشرح لاميّة العرب , والمذكّر والمؤنّث , والتعازي والمراثي , والكامل في اللغة والأدب , وهو أشهر كتبه على الإطلاق, وأكثرها ذيوعاً , فهو منه بمنزلة الحيوان والبيان والتبيين من الجاحظ , ومنزلة عيون الأخبار من ابن قتيبة , وقد عدّه ابن خلدون واحداً من أربعة كتب هي أركان علم الأدب في تراثنا العربي "[24].

وبعد هذه التوطئة من الكلام عن المؤلّف وكتابه نكون قد ملأنا الكنانة عسانا نصيب ما نصبو إليه, أو نمشي في سبيل الهداية إليه , ونفهم المنهج فيه , والموادّ التي اشتمل عليها .

منهج الكتاب ومادته :

قد لا يستطيع الإنسان معرفة أسبقيّة التأثير أهي للمادّة أم للعنوان ؟ولعلّ المبرّد عندما اختار اسم "الكامل" لكتابه هذا كان واعياً بأنّه يتناول فيه كلّ علمٍ معروفٍ في عصره , أو لعلّه وسمه بهذا الاسم لمّا وجده كتاباً في المصطفى من كلّ علم , والمنتخب من الحوادث والأخبار, وليس هذا وجه الأهميّة , بل التنسيق الذي أراد المبرّد أن يصبّ فيه ما يعرض من أفكار وأخبار وشعر ودرس في النحو واللغة والقرآن الكريم , لكنّه لم يتقيّد بالمادّة الواحدة حتى ينجز الحديث فيها , بل كان ينتقل من مادة إلى أخرى ومن علمٍ إلى علمٍ مستطرداً بذلك من مسألة إلى أخرى. رغم شيوع منهج التصنيف والتبويب في أيّامه , وقد لا يكون ذلك مرفوضاً منه ؛ لأنّ العهد بالتبويب قريب , وكانت النفس يومئذٍ ما تزال متأثّرة بالسنّة التي استنّها الأوائل ألا وهي الاستطراد بما له من أسباب ودوافع , ومزايا وخفايا تعكس طبيعة الحياة , وأثر طرائق اكتساب العلوم في طريقة عرضها؛ حتّى كأنّه يوجّه الكلام إلى تلاميذ يقعدون حوله , ويلقي عليهم من فيض علمه ما يتسنّى له , بما لتلك الطريقة من أثرٍ في اضطراب المنهج حيناً , وفقدانه حيناً آخر فكثيراً ما انساق الشيوخ المعلّمون وراء حادثةٍ عارضة , أو سؤالٍ مفاجئ يقود إلى مسألة غير ذات تدبير مسبق

فالمبرّد يقدّم لكتابه بمقدّمة موجزة تنمّ عمّا فيه من موادّ متنوّعة وغزيرة , وما تحتاجه من جهدٍ كبير, وتوفّرٍ, وانكبابٍ مضنيين .

وكأنّما أراد لكتابه أن يقف بذاته ولا يحتاج معه قارئه إلى عونٍ من سواه فقد قال : " هذا كتابٌ ألّفناه يجمع ضروباً من الآداب , ما بين كلامٍ منثور , وشعرٍ مرصوف , ومثلٍ سائر , وموعظةٍ بالغة , واختيار من خطبةٍ شريفة, ورسالة بليغة . والنيّة أن نفسّر كلّ ما وقع في هذا الكتاب من كلامٍ غريب , أو معنى مستغلق , وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً , حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً , وعن أن يُرجَع إلى أحدٍ في تفسيره مستغنياً[25] " .

وكأنّنا بالمبرّد يريد لكتابه أن يكون مستقلاً بموادّه المتنوّعة الغزيرة , وبأسلوبه القائم على الشرح والإيضاح لكلّ ما يمكن أن يستغلق على عقل المتلقي أو القارئ وهذا كلّه واضحٌ في تضاعيف الكتاب , وقد يكون هذا من أثر اختيار العنوان "الكامل" , أو سبباً فيه كما أسلفنا, لكنّ المحصّلة في الأمر أنّ الكتاب افتقر إلى التصنيف افتقاراً واقعيّاً , وإن أشار

---

[24] – **زردة , يوسف ,مصادر التراث العربي , ص:162**

[25] – **الكامل , ص : 3-4**

مؤلّفه إلى نوع من التصنيف والتبويب , فالأبواب التي جعلها المبرّد في كتابه لا تحمل أسماء وعناوين, إنّما هي إشعارٌ بالانتقال من مسألةٍ إلى أخرى , ولم تكن لتحصر الموادّ المتجانسة الواردة ضمنها ؛ إذ كان فيها من التنوّع والتداخل ما جعل عمليّة التبويب تلك صوريّة بحتة , ولم يكن هذا إلا نوعاً من عرض مجموعات من المختارات في موضوعات ومعانٍ وعلومٍ مختلفة , وليس هذا بغريب إنّما هو معروف مألوف لما بين المختارات من ظلال علوم متنوّعة , فالتفسير مثلاً قائمٌ على علم النحو , والنحو يقود إلى التفسير أيضاً , ولا يبعد الاثنان عن القراءات , ولا نجد في شيءٍ في اللغة بعداً عن علوم البلاغة والبيان , والمثل السائر قد يكون من الشعر , والسحر في البيان , والحكمة في الشعر وهذا كلّه مما يرد في الخطب .... وهكذا .ولهذا كلّه تأثيره البالغ والخطير أحياناً في أساليب العلماء والمؤلّفين في تلك الحقبة الزاخرة من عمر ثقافتنا العربيّة والإسلاميّة , وكأنّنا بهذا الكتاب مجموعةٌ من المحاضرات كلٌّ منها تنحو نحو الكمال والاستقلال . من غير أن ينتفي عنها الترابط والانسجام وفق شخصيّة المؤلّف , وطبيعة تقارب الموادّ العلميّة والأبواب التي تنضوي تحتها , فالمبرّد لم يكن ليستطرد في موضوعاته عشوائيّاً تماماً , ولا عن عمدٍ دائماً , إنّما بين هذا وذاك فرضت طبيعة المواد المعرفيّة التي يتناولها , وعادات المعلّمين , وتكامل علوم اللغة – فرضت نفسها في عمليّة إنتاج تلك المؤلّفات البارزة , وقد كثر الحديث في تلك الظروف والعوامل والأسباب , ومن أبرزها كما صرّح به المبرّد وقبله الجاحظ دفع الملل والسأم عن المتلقين والقرّاء , وفي هذا نجد المبرّد يقول في مطلع أحد أبواب كتابه : "تذكر في هذا الباب من كلّ شيءٍ شيئاً لتكون فيه استراحة للقارئ وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف ونخلط ما فيه من الجِدّ بشيءٍ من الهزل ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس[26] ".فالجاحظ قد استنّ الاستطراد , ووطّن له في نفوس المؤلّفين والمتلقين بما جعل الخروج عنه نوعاً من النقص أو الضعف في نتاج المؤلّف ؛ بمعنى أنّه رسم ذلك الشِّعب على مقاس مقدرته وموهبته فيه حتّى بقي علماً عليه , ومتقدّماً في مضماره , ولن نكثر أو نطيل الحديث حول الأسلوب والمنهج في كتاب الكامل لأنّه لا يغني عن توصيف مضمون الكتاب , ولا يجلو حقيقة غناه بتكامل موادّه , وحسن تجاورها , وتداخل أطيافها , فقد أطلق المبرّد لذخيرته العلميّة العِنان لتنطلق في رحاب القول في العلوم كلّها تقريباً لتنشر ما تنشر من أقوال في كلّ مادة وباب بما تنتج من حسن المنتخب , ودقيق التعليق , وجميل السرد والعرض في المختار من كلّ علم , وجليل الرأي والتفسير والدرس في كلّ نصّ درسه وعلّق عليه كاشفاً عن ذوقٍ رفيعٍ , ورأيٍ سديد في الغالب الأعمّ, معطياً بهذا كلّه صورة إيجابيّة عن شخصيّة المعلّم , وعمق معارفه وغناها .

خاتمة:

وإن لم يكن من الضرورة عقد مقارنة بسيطة فيما بين أولئك المؤلّفين الأوائل , فإنّ بالإمكان عرض أبرز ما كان لكلّ منهم من سماتٍ ومزايا . فهم من أرسوا دعائم التفكير والتأليف في تراثنا الثر حتّى عرفنا من خلال نتاجهم كيفيّة صوغ العلوم , وسكبها في قوالب تحمل مياسمهم .

- فالجاحظ مؤسّس التأليف الموسوعي في عصره , وحامل لواء الاستطراد في أسلوبه , وقد شاع هذا الأسلوب بعده , وظلّ يحمل اسمه , ويُشار به إليه في كلّ محفل . وقد أكثر منه في الحيوان لسعة ما اشتمل عليه من العلوم والمعارف حتى غدا موسوعةً فكريّةً بامتياز , لكنّه كان أبعد ما يكون عن وحدة الموضوع , ولولا الطابع الموسوعي , وقوّة أسلوب الجاحظ , ومقدرته على شدّ الانتباه , والترويح عن النّفس لفقد الكتاب كثيراً من قيمته ورونقه ,ونجده في البيان والتبيين أقرب إلى وحدة الموضوع , وإن تعدّدت المجالات التي تناولها فيه , لكنّها بالمقابل تتصل بنهضة فكريّة

[26] –**الكامل , مقدّمة الباب السادس والأربعون .**

ذات طابع واسع ويعرض من خلاله آراءه ومواقفه حتى غدا مرجعاً لكلّ من أراد الاطلاع على البيان العربي , والبلاغة العربيّة قراءةً لهما , أو تأليفاً فيهما ؛ ولهذا عُدّ أحد الكتب الأربعة التي لا غنى عنها لأيّ قارئ أو دارس .

- والحال عند ابن قتيبة في "عيون الأخبار"تختلف اختلافاً واضحاً ؛ فقد نجح نجاحاً غير قليل في تنظيم موادّ كتابه , وتصنيفها , وتبويبها دون أن يخرج عن أسلوب الاستطراد الّذي أسّسه , وسار عليه من هم قبله , وبهذا لم يقطع طريق السابقين إنّما فتح للآتين منهجاً جديداً له ما يسمُه , ويوضح هيئته . وأهم ما هو عليه الحال في هذا الكتاب أنّه يخاطب فئات المتلقين على اختلافها من أيّ زاويةٍ نظرنا إليها ؛ بمعنى أنّه كتابٌ لجميع الناس , وهو بهذا معلّم للإنسان كيفيّة ألا يكون مستبدّاً في رأيه , مصادراً آراء الآخرين وحقّهم في أن يختلفوا عنه.

- أمّا الكامل للمبرّد فهويّته أقرب إلى النحو واللغة من كلّ ما عداه , فلا هو كعيون الأخبار في تصنيفه وتبويبه وإن طرح شيئاً من هذا , ولا هو مغرقٌ في الاستطراد والتنويع المذهلين كما في الحيوان للجاحظ , ولا هو بالمقابل كالبيان والتبيين في اقتراب هذا الأخير من وحدة الموضوع الذي يدور فيه , وإن تنوّعت فيه السبل , بل أخذ من كلّ مما سبق بطرف كما بيّنا سابقاً , فهو كتابٌ موسوعيٌّ لكن وفق إطارٍ غير شموليّ كما في الحيوان – مثلاً – إلا أنّ ميزته الأعلى كونه نحا منحى الاستقلاليّة , وعدم الحاجة إلى الاستعانة بسواه لفهمه , والوقوف على كنه جوهره .

- والقاسم المشترك الأكبر فيما بين هذه الكتب الأربعة أنّ قيمتها , والإفادة منها لا تكون إلا بقراءتها كاملةً عن وعيٍ وتحفّز ومقدرة قلّ لها النّظير , وهذا في مؤلّفات الجاحظ أوّلاً , وخاصّةً في الحيوان ثمّ البيان والتبيين , وفي الكامل للمبرّد ثانياً لأنّ تصنيفه صوريٌّ , وليس أكثر – كما أشرنا – ويأتي في هذا عيون الأخبار ثالثاً لأنّه أقرب إلى التصنيف والتبويب رغم ما فيه من استطراد هنا وهناك .

المراجع :

- ابن خلدون , المقدّمة , منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات , بيروت .
- ابن خلكان , وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان , تحقيق الدكتور إحسان عباس , دار صادر , بيروت.
- ابن قتيبة , عيون الأخبار , دار الكتاب العربي , بيروت , من دون تاريخ .
- ابن النّديم , الفهرست , تحقيق , رضا تجدّد , طهران : 1971م .
- إسماعيل , عزّ الدين :

الأسس الجماليّة في النقد الأدبي , دار الفكر العربي , ط3 : 1974م .

المصادر الأدبيّة واللغويّة في التراث العربي , دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر .
- الأنباري , نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء , تحقيق إبراهيم السامرائي,الناشر :مكتبة المنار, الأردن.
- الجاحظ , أبو عثمان :

الحيوان , تحقيق وشرح عبد السلام هارون , دار إحياء التراث العربي ,بيروت .

البيان والتبيين ,تحقيق وشرح عبد السلام هارون , الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- الحموي , ياقوت , معجم الأدباء , سلسلة الموسوعات العربيّة , بيروت , دار إحياء التراث العربي , الطبعة الأخيرة
- زردة , يوسف , مصادر التراث العربي في الأدب واللغة والتراجم , جامعة تشرين :2009–2010م.
- الشكعه , مصطفى , مناهج التأليف عند العلماء العرب , دار العلم للملايين , بيروت ,ط2 :1974م.
- الطرابلسي , أمجد , نظرة تاريخيّة في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافية , ط2 :1954م .
- فرغلي ,عبد الحفيظ, والقرني, أحمد حسنين, المبرّد "أديب النحاة", الهيئة المصريّة العامّة للتأليف والنشر :1971م, رقم الإيداع بدار الكتب 1971/2406 .

- المبرّد , أبو العبّاس , الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف , تحقيق الدكتور زكي مبارك , ط1 1936, مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .